هكذا وصف النبي ﷺ نفسه

قراءة سيميائية وبلاغية في تشبيهات النبي ﷺ لنفسه



عمرو خالد المصري

هكذا وصف النبي ﷺ نفسه

أو

هكذا شبَّه النَّبيُّ ﷺ نفسه

قراءة سيميائية وبلاغية في تشبيهات النبي ﷺ لنفسه

تأليف

عمرو خالد المصري

باحث دكتوراه في اللسانيات بجامعة السلطان زين العابدين

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله خلاق الخواطر في الأذهان وصارفِها ومقلبها، لا حول ولا قوة إلا بك ولا إلهامَ إلا منك، صاحب العطيّات ومانح الفيوضات قلتَ وأنتَ الوهاب:" وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ.."

أما بعد؛ فيا أيها المحول رحله إلى كُتيبنا هذا، فقد نزلتَ سهلا وحللتَ أهلا، فقد خطر ببالي ذات خُلو بال أن أنظر في السنة الغراء كيف شبه النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، فقرأتُ ونظرت فإذا أنا أمام باب بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم ماثلا منشدها، وأود أن يعرف كل من أحب ما عرفت وأن يرى ما رأيت، فالبيان النبوي مأدبةٌ لا يُروى منها صَديٌ أبدًا وعلى ذلك فهي المنهل العذب في دنيانا هذه والذي عساه إن أصاب منك موضعَ تفطُن أن يكون معينك يوم ينضب المعين، قل إن أصبح ماؤكم غورا.. فمن يأتيكم بماءٍ معين، والنصوص النبوية بعلوها البياني إن نظرنا لها بعين أصحاب هذا الفن فهي بناء بصري وتداولي وسيميائي متكامل يُحوِّل التجريد الإيماني إلى مشاهد حية شاخصة، تؤثر في متلقيها تأثيرا يحمله إلى الانهزام له في أي جهة وعلى أية حال بقلبٍ متيم وعقلٍ مُسَلَّمٍ ولهان.

فالصورة النبوية في الأحاديث الشريفة تعتمد على تحويل المعاني الذهنية الكبرى إلى «دوالّ بصرية» ملموسة (كاللبنة، والغيث، والفراش، والربيئة، وظلال الشجرة)، فتتحول الكلمة إلى مشهد زاخر، والمفهوم إلى حركة سيميائية وحجاجية تتدفق بالحياة.

وتأتلف يا أخي القاري في هذه الدراسة القراءة السيميائية مع نظرية أفعال الكلام والبلاغة الحجاجية الجديدة، مع استبقاء البلاغة العربية الأصيلة في وجوه استعاراتها وتشبيهاتها، مستندةً إلى ينابيع الشروح الحديثية المعتمدة (كفتح الباري لابن حجر، والمنهاج للنووي، ومعالم السنن للخطابي، وفيض القدير للمناوي، وتحفة الأحوذي، وعون المعبود)، ليقف القارئ على أسرار البيان النبوي في وصف الذات المحمدية الشريفة صلى الله عليه وسلم.

وقد التزمتُ في التحليل التداولي بتصنيف "سيرل" لأفعال الكلام في أقسامه الخمسة: الإخباريات أو التقريريات، والتوجيهيات، والالتزاميات، والتعبيريات، والإعلانيات. وفرّقتُ بين الفعل المباشر الذي تطابق فيه الصيغةُ القصدَ، والفعل غير المباشر الذي يؤدي فيه الخبرُ وظيفةَ الطلب، وهو قريب مما سمّاه البلاغيون خروجَ الكلام عن مقتضى الظاهر، فتأمل! كما فرّقتُ بين القوة الإنجازية التي يحملها القول، والأثر التأثيري الذي يُحدثه في السامع من ترغيب أو ترهيب أو طمأنينة. وأكثر هذه التشبيهات أخبارٌ في ظاهرها، توجيهاتٌ في مقاصدها؛ فغاية المثل النبوي حين يقرر صورةً إنما ليحمل السامع على فعل أو ترك، وذلك سرُّ نفاذه إلى القلوب.[1]

(١) منهج التخريج: ما كان في الصحيحين أو أحدهما اكتفيتُ بالعزو إليهما، وما كان خارجهما ذكرتُ مصادره وكلام أهل الصنعة في درجته. والأرقام لصحيح البخاري بالترقيم المتداول (طبعة دار طوق النجاة الموافقة لفتح الباري)، ولصحيح مسلم بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، وللسنن بترقيمها المتداول. والإحالة على شرح النووي إلى طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت (ط٢، ١٣٩٢هـ)، وعلى تفسير ابن كثير إلى تحقيق سامي بن محمد السلامة (دار طيبة)، بذكر الجزء والصفحة.

الحديث الأول

اللبنة التي اكتمل بها البناء

نص الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ! قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ».[1]

يقف الناظر في هذا البيان المحمدي الشريف أمام لوحة معمارية تتآزر فيها حركة العين مع وثبة الذهن؛ حيث يُشيِّد الصرح النبوي في مخيلة السامع بيتًا شاهقًا أُفرغ عليه الجمال والإحسان حتى استبدّ بروعته بأبصار الطائفين حوله، بيدَ أن في زاوية منه كُوَّةً بصريةً لطيفة تلفت الألباب وتستدعي تمام التشييد. هذا التشكيل البصري دالّ سيميائي معماري بالغ العمق والخطورة؛ إذ يحيلنا فورًا على مدلول عقدي تاريخي حاسم يقرر وحدة الشرائع النبوية وتكاملها الموصول؛ فشريعة كل نبي أرست مدماكًا في البناء، حتى إذا تناهى البيت إلى غاية حسنه وبقيت تلك الزاوية الفارغة، أشرقت الذات الشريفة لتمثل «اللبنة الخاتمة» التي باستقرارها يكتمل البناء وتنغلق أبواب الوحي والتشييد الرسالي إلى الأبد.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن زاوية البلاغة التداولية والحجاجية، لا يقف النص عند حدود التشبيه التمثيلي المبتكر، بل يؤدي عبر هذا الإخراج المعماري فعلًا إخباريًّا تقريريًّا قوته الإنجازية إثبات ختم النبوة إثباتًا قاطعًا؛ فليس القول إعلانًا يُنشئ الختم، بل إخبارٌ عن أمر قضاه الله، غير أن أثره التأثيري يقطع الطريق على كل ادعاء طارئ للنبوة بعده، ويقيم حجة عقلية وجدانية تأخذ بأزمّة المتلقي؛ إذ يخرجه من التسليم الجمالي بالحسن الهندسي المشاهَد ليرسي في قلبه الجزم بقطعية الختم الرسالي. وقد التقط شراح الحديث الأعلام هذا الخيط البياني الدقيق؛ إذ يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه: «والمراد أن موضع تلك اللبنة هو موضعه ﷺ من النبوات؛ فبه كمل البناء وختم»، بينما ينبه الإمام النووي على دلالته المباشرة بقوله: «فيه فضيلته ﷺ، وأنه خاتم النبيين، وجواز ضرب الأمثال في العلم وغيره». وهكذا تنصهر اللبنة الشريفة في جسد البناء النبوي؛ فلا هي بالغريبة الطارئة عليه، ولا هو بالمستغني عن كمالها، بل هي سر حسنه وتمام هيكله وغاية استقراره في تاريخ البشرية.

الحديث الثاني

دعوة إبراهيم وبشارة عيسى

نص الحديث:

عَنِ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي عَبْدُ اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى بِي، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ، وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ تَرَيْنَ».[1]

إذا كانت «اللبنة» قد رسمت الختم مكانًا في صرح النبوة، فإن هذا الحديث يرسمه زمانًا في أمّ الكتاب؛ إذ يقابل البيان النبوي بين مشهدين بصريين متباعدين: نبوة مكتوبة مكتملة، وآدم «منجدلٌ في طينته»، أي مُلقًى على الجَدالة وهي الأرض، طينًا لم تُنفخ فيه الروح بعد. ثم لا يقدّم النبي ﷺ ذاته بصفة من الصفات، بل بوصفها حدثًا في سلسلة ممتدة: «دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي»، وهو تشبيه بليغ حُذفت أداته ووجهه، فصار المعنى: أنا مصداق

(١) أخرجه أحمد (١٧١٥٠) واللفظ له، و(١٧١٦٣)، والحاكم في المستدرك وصحّح إسناده ووافقه الذهبي، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وفي رواية الحاكم: «ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام». وفي أسانيده مقال، والحديث صحيح لغيره بشواهده كما قال محققو المسند (طبعة الرسالة). والدعوة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، والبشارة في قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

دعوة إبراهيم، وتحقُّق بشارة عيسى، وتأويل رؤيا أمي. وبهذا تتحول الذات الشريفة إلى علامة سيميائية تحيل على ماضٍ نبوي طويل كان ينتظرها، فلا يُفهم مجيئها إلا مكتملًا لما سبقه.

ومن الناحية التداولية، يتصدّر الحديثَ فعلٌ التزامي في قوله: «وسأنبئكم بأول ذلك»، يَعِد فيه المتكلم بالبيان ثم يفي به في التوّ بسلسلة من الأفعال الإخبارية. أما حجاجيًّا فالحديث يقيم حجة الشهادة؛ إذ يستدعي شهادة نبيين سابقين يقرّ بهما أهل الكتاب، فيجعل دليل نبوته جزءًا من تاريخ النبوة نفسه، لا دعوى طارئة عليه. وقد بيّن الحافظ ابن كثير وجه هذا الترتيب فقال: «والمراد أن أول من نوّه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مذكورًا مشهورًا سائرًا حتى أفصح باسمه خاتمُ أنبياء بني إسرائيل نسبًا، وهو عيسى ابن مريم عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيبًا وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾؛ ولهذا قال في هذا الحديث: "دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ابن مريم"».[٢]

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/٤٤٤).

الحديث الثالث

الغيث والهدى والعلم

نص الحديث:

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».[1]

ينشر هذا الحديث النبوي الشريف مشهدًا كونيًّا متدفقًا بالحياة والحركة، تتصافح فيه حقيقة الوحي السماوي مع طبيعة النفوس البشرية؛ إذ يتجلى الهدى والعلم في دالّ سيميائي حركي ناطق هو «الغيث الهطّال» الذي ينزل بالرحمة على الأرض الهامدة. بيدَ أن هذا الصبيب المائي العام لا يلتقي بصفحة واحدة، ولكن يرتطم بثلاث طبقات من الأرض تتشكل بها ثلاثة ترميزات بصرية ونفسية: أرض نقية طيبة تشرب الماء وتثمر العشب الندي، وأجادب صلبة لا تثمر لكنها تحفظ الماء في إنائها ليرتوي منه الخلق والأنعام، وقيعان ملساء صلداء تضيع فيها قطرات الغيث فلا هي أمسكت ولا هي أنبتت. إن هذا التراسل بين ماء السماء وماء الوحي يعكس تجليًا

(١) أخرجه البخاري (٧٩) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٢)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

حجاجيًّا وتداوليًّا عاليًا؛ إذ يضع كل سامع أمام صورة أرضه القلبية ليمتحن مدى الاستجابة وأفق التلقي، فهو في ظاهره خبرٌ تمثيلي، وفي قوته الإنجازية فعلٌ توجيهي غير مباشر يستحث المكلف على التحول من سطحية الاستماع الجاف إلى الفقه والتفقه والإثمار.

وقد استجلى جهابذة الشراح أسرار هذا التناظر البديع؛ فقد نقل ابن حجر عن الإمام القرطبي قوله: «ضرب النبي ﷺ لما جاء به من الدين مثلًا بالغيث العام الذي يأتي في حال حاجة الناس إليه، وكذا كانوا قبل مبعثه؛ فكما أن الغيث يحيي البلد الميت، كذلك علوم الدين تحيي القلب الميت». ثم يواصل الحافظ ابن حجر تفكيك تلك الأنماط الإنسانية ببراعته التحليلية الشارحة: «فمنهم العالم العامل المعلم، فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها... ومنهم الجامع للعلم المستغرق زمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقه فيما جمع لكنه أداه لغيره... ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله فهو بمنزلة الأرض السبخة». ويعزز الإمام النووي هذا التوصيف اللغوي والبصري للقيعان بقوله: «هي الأرض المستوية الملساء التي لا نبات فيها، وهذا هو المراد في الحديث كما صرح به ﷺ». فتحوّل التشبيه الطبيعي إلى درس تربوي وتداولي حاسم، يقرر أن الهدى النبوي قائم بالرحمة، وإنما تتمايز المنازل بحسب قبول النفوس وريّ القلوب.

الحديث الرابع

الدار والمأدبة والداعي

نص الحديث:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ فِي المَنَامِ كَأَنَّ جِبْرِيلَ عِنْدَ رَأْسِي، وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ رِجْلَيَّ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اضْرِبْ لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ: اسْمَعْ سَمِعَتْ أُذُنُكَ، وَاعْقِلْ عَقَلَ قَلْبُكَ، إِنَّمَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أُمَّتِكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَارًا، ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتًا، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَائِدَةً، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُولَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ؛ فَاللهُ هُوَ المَلِكُ، وَالدَّارُ الإِسْلَامُ، وَالبَيْتُ الجَنَّةُ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولٌ، فَمَنْ أَجَابَكَ دَخَلَ الإِسْلَامَ، وَمَنْ دَخَلَ الإِسْلَامَ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ دَخَلَ الجَنَّةَ أَكَلَ مَا فِيهَا».[1]

تتفتح في هذا البيان الرؤيوي المحمدي الجليل مشاهد صرح ملكي باذخ الجلال والجمال، فتلتقي بشارة الوحي المنامي بتقريب المثل المضروب بحضرة الملائكة المقربين؛ إذ تتنزل الرؤيا السيميائية في هيئة مراتب هندسية ووظيفية متدرجة: الملك الأعظم صاحب الملكية والمشيئة،

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٠) وقال: «هذا حديث مرسل؛ سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبد الله»، وقال: «وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن النبي ﷺ بإسناد أصح من هذا»، وضعّف الألباني إسناده. ويغني عنه ما أخرجه البخاري (٧٢٨١) موصولًا من حديث جابر رضي الله عنه: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم...» بنحوه، وفيه: «فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ».

والدار الواسعة الحصينة (الإسلام)، والبيت المنعَّم الباطن في قلب الدار (الجنة)، والمأدبة العامرة بما تشتهي الأنفس، ثم الرسول المبعوث الواقف على العتبات يدعو الناس إلى هذا الطعام. إن التشكيل السيميائي البصري هنا لا يقف عند حد الترسيم المكاني، بل تتعاقب فيه أفعال الكلام تعاقبًا محكمًا: فعلٌ توجيهي مباشر في صدر الرؤيا، ثم فعلٌ إخباري تمثيلي يفسّر المثل ويقرر مراتبه؛ إذ يفتتح الخطاب بتنبيه الحواس والمشاعر تنبيهًا صارمًا: «اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك»، وهو أمرٌ صريح الصيغة يخرق سكون المتلقي، ويُعِدّ ذهنه وقلبه لتلقي التشييد المفهومي المعظَّم، مبيّنًا أن الذات المحمدية الشريفة هي الداعي الحصري والجسر الموصل الذي ينقل العباد من شتات الطريق إلى سكن الدار، ومن أُكُل الفناء إلى قِرى الخلد.

وقد جاء تفسير هذا المثل في متن الحديث نفسه؛ فالملك هو الله سبحانه، والدار الإسلام، والبيت الجنة، ومحمد ﷺ هو الرسول الداعي؛ فمن أجابه دخل الدار، ومن دخل الدار أفضى إلى البيت، ومن دخل البيت ظفر بالقِرى الممتد الذي لا ينقطع. وفي رواية البخاري لهذا المثل جُعلت الدار هي الجنة، والداعي محمدًا ﷺ، وزِيد فيها: «فمن أطاع محمدًا ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمدًا ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فَرْقٌ بين الناس». أما اقتران التنبيه السمعي والقلبي في صدر الرؤيا فإنما هو لإيقاظ أفق انتظار المتلقين وشدّ عقولهم نحو قطعية الاستجابة؛ فليست الرسالة المحمدية مجرد مناداة طارئة، بل هي الدعوة التي من أجابها دخل في حصن الأمان وسكن دار الكرامة الإلهية، ومن أعرض عنها وبقي خارج الدار طُرح في التيه وحُرم من المأدبة والنعيم.

الحديث الخامس

إنما أنا قاسم والله يعطي

نص الحديث:

عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ».(١)

تشرق في هذا الحديث النبوي الشريف دلالة تداولية وسيميائية في غاية الصدق والتواضع والكمال؛ إذ تتوزع أدوار الفيض والتبليغ بين دالّين محوريين: «القاسم الأمين» و«المعطي الوهاب». فبالرغم من المقام العلي للذات المحمدية الشريفة في كشف الوحي وبيان الشرائع، فإن البيان النبوي يحدد وظيفته بدقة بالغة عبر دالّ بصري يجسد يدًا تقسم العطاء الإلهي بحكمة وعدل بين أفراد الأمة، دون أن تدّعي لنفسها خلق هذا العطاء أو الانفراد بملكيته. وإن أسلوب القصر بـ«إنما» يجعل القول تداوليًّا فعلًا إخباريًّا قوته الإنجازية تصحيح الاعتقاد وتحرير النسبة، فيفرّق حجاجيًّا وبوضوح بين أمانة التوصيل التي اضطلع بها الرسول، وبين أصل التوفيق والفقه القلبي الذي هو محض عطاء إلهي وتفضّل رباني.

(١) أخرجه البخاري (٧١) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

وقد جلّى أئمة الشرح هذه اللفتة الاعتقادية والأسلوبية السامية؛ حيث يقول الإمام النووي في المنهاج: «معناه أن المعطي حقيقة هو الله تعالى، ولستُ أنا معطيًا، وإنما أنا خازن على ما عندي، ثم أقسم ما أُمرت بقسمته على حسب ما أُمرت به؛ فالأمور كلها بمشيئة الله تعالى وتقديره، والإنسان مُصرَّف مربوب». فالنبي ﷺ يمثل الوسيط المأمون الذي يبث العلم ويُجري أسباب الهداية، بينما يظل الرب سبحانه هو المنعم الذي يفتح أقفال القلوب ويشرح الصدور بالنور، وفي هذا القصر الحجاجي أعلى مراتب العبودية والتنزيه الإلهي.

الحديث السادس

الماحي والحاشر والعاقب

نص الحديث:

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ».(١)

تتبدّى في هذه الأسماء الشريفة بنية سيميائية وتداولية تتجاوز مجرد التسمية التعريفية المجردة لتستحيل إلى «علامات وظيفية دالة»، تختزل رسالة المصطفى ﷺ وتاريخها الممتد. فالماحي دالّ بصري يحيل على فعل الإزالة والمحو لظلمات الشرك من الوجود، والحاشر علامة سيميائية تجسد التقدم والسبق الإنساني على أعتاب القيامة، والعاقب رمز للانغلاق التام والختم النهائي لسلسلة النبوة. ومن الناحية التداولية وأفعال الكلام، فإن إعلان هذه الأوصاف وتثبيتها أسماءً ينشئ «أفعال كلام إخبارية وتثبيتية قاطعة» تقرر الهوية النبوية وتحدد قدرها المؤثر في مسار الإنسانية.

وقد أفاض أئمة الشرح في تفكيك هذه الدلالات العميقة؛ إذ يقول الحافظ ابن حجر: «"وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر" قيل: المراد إزالة الكفر من جزيرة العرب... وقوله: "وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي" أي: على أثري، أي: يحشر قبل الناس... وقوله: "وأنا

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٢) واللفظ له، ومسلم (٢٣٥٤)، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

العاقب" جاء تفسيره: الذي ليس بعدي نبي». ويؤكد الإمام النووي هذا التفسير التراثي اللغوي بنقله عن أئمة اللسان: «العاقب والعقوب: الذي يخلف في الخير من كان قبله... والمقفّي: المتبع للأنبياء». وهكذا تحولت الأسماء الشريفة إلى وثيقة حجاجية وسيميائية ناطقة، تشهد بفضل الرسول وسعة أثره وتفرده بختام رسالات السماء.

الحديث السابع

مثل الوالد المعلِّم

نص الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ، فَإِذَا أَتَى أَحَدُكُمُ الغَائِطَ فَلَا يَسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ وَلَا يَسْتَدْبِرْهَا، وَلَا يَسْتَطِبْ بِيَمِينِهِ»، وَكَانَ يَأْمُرُ بِثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، وَيَنْهَى عَنِ الرَّوْثِ وَالرِّمَّةِ.(١)

يتجلى التلطف المحمدي في هذا النص الشريف في أبهى صوره، حيث يستحضر البيان النبوي دالًّا سيميائيًّا وإنسانيًّا متفقًا على إجلاله وهو «الوالد الحنون»، لينزله على مقام السلطة التعليمية النبوية. إن تشبيه الذات الشريفة بالوالد يمثل خرقًا حجاجيًّا وتداوليًّا رفيعًا لأوهام التعالي الملوكي؛ فالجملة إخبارية في صيغتها، لكنها تؤدي وظيفة تمهيدية للأفعال التوجيهية المباشرة التي تليها (النهي عن استقبال القبلة واستدبارها والاستطابة باليمين)، وتعمل بمنطق التأدّب الذي يقرّب المسافة بين الآمر والمأمور، فتبدد وحشة التكليف، ويكسر حواجز الحياء والكبر بين المعلم والمتعلم، ليتلقى الصحابي والمسلم دقائق الأحكام وآداب الخلاء بانشراح وطاعة دون إحراج أو استنكاف.

---

(١) أخرجه أبو داود (٨) واللفظ له، والنسائي (٤٠)، وابن ماجه (٣١٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وإسناده حسن، وحسّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود. وأصل النهي عن الاستنجاء باليمين وبأقل من ثلاثة أحجار في صحيح مسلم (٢٦٢) من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه.

وقد استجلى الإمام الخطابي في معالم السنن سر هذا البسط والتأنيس البياني فقال: «قوله: "إنما أنا لكم بمنزلة الوالد" كلام بسط وتأنيس للمخاطبين؛ لئلا يحتشموه ولا يستحيوا عن مسألته فيما يعرض لهم من أمر دينهم، كما لا يستحيي الولد عن مسألة الوالد فيما عنَّ وعرض له من أمر». فالنبي ﷺ يجمع لأمته بين رعاية الأبوة الحانية، ودقة التوجيه التشريعي التي تنزل إلى أدق تفاصيل السلوك البشري لتطهّره وتزكّيه.

الحديث الثامن

الرجل الذي يمنع الفراش من النار

نص الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا».(١)

ينسج النبي ﷺ في هذا الحديث مشهدًا دراميًّا حركيًّا يفيض بالتضاد السيميائي والوجداني؛ إذ تنقسم اللوحة البصرية إلى ثلاثة عناصر شاخصة: نور النار الإغرائي القاتل، والاندفاع الأعمى الطائش للدواب والفراش نحو الحريق، واليد النبوية المفتدية التي تتعلق بحُجَز الناس لترد الهالكين عن التردّي. ولعل أبدع ما في هذا التشكيل البياني والتداولي هو ذلك «الالتفات المفاجئ» من صيغة الغيبة الغائمة («مثل الناس») إلى صيغة الخطاب المباشر المواجِه («فأنا آخذ بحجزكم»)، وهو نقل أسلوبي يحوّل الخبر التمثيلي إلى فعل توجيهي غير مباشر قوته الإنجازية التحذير، ويضع المخاطب وسط الحريق المحيط، ليتحرك حجاجه العاطفي المباشر لانتشاله من غفلته.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وعند مسلم، وكذا الترمذي (٢٨٧٤)، بصيغة الخطاب: «وأنتم تَقَحَّمون فيها».

وقد نبّه الحافظ ابن حجر على سر هذا الالتفات الحجاجي الدقيق بقوله: «التفت من الغيبة في قوله: "مثل الناس" إلى الخطاب في قوله: "بحجزكم"... وفيه إشارة إلى أن الإنسان إلى النذير أحوج منه إلى البشير؛ لأن جبلّته مائلة إلى الحظ العاجل دون الحظ الآجل». بينما يلخص الإمام النووي الحقيقة التمثيلية لهذا الموقف الرحماني بقوله: «مقصود الحديث أنه ﷺ شبّه تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة وحرصهم على الوقوع في ذلك، مع منعه إياهم وقبضه على مواضع المنع منهم، بتساقط الفراش في نار الدنيا لهواه وضعف تمييزه». فكان هذا المثل الشريف أعمق تعبير عن الشفقة النبوية التي تطارد الغافلين على شفير الهلاك لتنقذهم من الردى.

الحديث التاسع

النذير العريان

نص الحديث:

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ».[1]

تتدفق في هذا الحديث النبوي الشريف شحنة استنفارية هائلة، تجسدها صورة «النذير العريان» رمزًا سيميائيًّا صادمًا محددًا في التراث العربي؛ حيث كان الرجل إذا دهمه عدو مبين ينسلخ من ثيابه ويومئ بها ليؤكد لقومه صدق الخبر، وشدة المباغتة، وتجرده من كل شاغل سوى إنقاذ عشيرته. إن استخدام هذا الدال البصري الصادم يجمع بين فعلين: فعل إخباري مؤكَّد بالمعاينة، وفعل توجيهي مباشر بصيغة الإغراء («فالنجاءَ»)، والتحذير في تصنيف سيرل من التوجيهيات؛ إذ يقرن المعاينة البصرية الحقيقية («رأيت الجيش بعينيَّ») بصيحة الصراخ الموجزة

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(«فالنجاءَ»)، ليقسم المتلقين تداوليًّا وحجاجيًّا إلى فريقين: طائفة بكّرت بالإدلاج في الغلس فظفرت بالنجاة، وطائفة أخلدت إلى النوم والدعة فاصطلمها الجيش في الصباح.

وقد نبّه الإمام النووي على الأصل التداولي والبياني لهذا المثل فقال: «أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيدًا منهم ليخبرهم بما دهمهم... وإنما يفعل ذلك لأنه أبين للناظر وأغرب وأشنع منظرًا، فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب للعدو». ويضيف الحافظ ابن حجر مبينًا سر التقرير النبوي: «ضرب النبي ﷺ لنفسه ولما جاء به مثلًا بذلك لما أبداه من الخوارق والمعجزات الدالة على القطع بصدقه، تقريبًا لأفهام المخاطبين بما يألفونه ويعرفونه». فغدت الصورة الاستنفارية أعلى درجات البلاغ المبين الذي لا يدع للغفلة مكانًا في قلب السامع.

الحديث العاشر

رحمة مهداة

نص الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ».(١)

يستحيل البيان النبوي في هذا الحديث الوجيز إلى كثافة إيقاعية وبلاغية تأسر القلوب؛ إذ تتحول الذات الشريفة عبر دالّ سيميائي رحماني من مجرد «صاحب للرحمة» إلى «عين الرحمة المجسدة والهدية الإلهية» المقبولة. وفي هذا القصر المقترن بالمبالغة يقوم فعلٌ إخباري يحمل شحنة تعبيرية من الامتنان، وأثره التأثيري طمأنينة تسكن إليها أرقّ النفوس؛ فالهدية في عرف أرباب العقول لا تُقابل بالصد أو الحذر، بل بالتكريم والقبول والشغف.

وقد فكّك العلامة المناوي في فيض القدير خبايا هذا التركيب البديع فقال: «"إنما أنا رحمة" أي: ذو رحمة، أو مبالغ في الرحمة حتى كأني عينها... "مهداة" أي: ما أنا إلا ذو رحمة للعالمين أهداها الله إليهم؛ فمن قبل هديته أفلح ونجا، ومن أبى خاب وخسر... ولا يشكل على الحصر وقوع الغضب منه؛ لأن الغضب لم يقصد من بعثه، بل القصد بالذات الرحمة، والغضب بالتبعية». فكان هذا الإعلان النبوي الموجز وثيقة أمان تطمئن الخلق بأن البعثة المحمدية إنما أشرقت بالنفع والخير والسلام.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٠٠) وصححه على شرط الشيخين، والبزار في مسنده (٩٢٠٥)، والطبراني في المعجم الأوسط (٢٩٨١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الدارمي (١٥) من مرسل أبي صالح. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٠).

الحديث الحادي عشر

الرجل الذي رأى العدو

نص الحديث:

عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ المُخَارِقِ وَزُهَيْرِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَا: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ انْطَلَقَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِلَى رَضْمَةٍ مِنْ جَبَلٍ، فَعَلَا أَعْلَاهَا حَجَرًا، ثُمَّ نَادَى: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافَاهْ، إِنِّي نَذِيرٌ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَى العَدُوَّ فَانْطَلَقَ يَرْبَأُ أَهْلَهُ، فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ: يَا صَبَاحَاهْ».(١)

يرسم هذا النص الشريف صورة سيميائية ناطقة لـ«الربيئة»؛ وهي العين المراقبة والطليعة الساهرة التي ترتقي الأماكن المرتفعة لتحرس القوم وتستبق مباغتة الأعداء. إن الدال البصري هنا يتشكل من رجل يركض بكل قوته ويلهث خوفًا على قومه، ليعلو صوته بالصيحة التراثية القاطعة «يا صباحاه». ويزيد المشهدَ صدقًا أن النبي ﷺ ضرب هذا المثل وهو قائم فوق رضمة من جبل، فكان هو الربيئة بالفعل والقول معًا. ومن الناحية التداولية الحجاجية، فإن النداء والاستغاثة («يا بني عبد منافاه»، «يا صباحاه») فعلان توجيهيان مباشران غرضهما استدعاء القوم وحملهم على التأهب، يكسران خمول السامعين، ويحقق بلاغة إنذار الصوت قبل أن يَرِد السيف والحريق.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٧) من حديث قبيصة بن المخارق وزهير بن عمرو الهلاليين رضي الله عنهما. والآية من سورة الشعراء: ٢١٤.

وقد أوضح الإمام النووي الدلالة اللغوية والتطبيقية لهذه اللوحة النبوية بقوله: «"يربأ" فمعناه: يحفظهم ويتطلع لهم، ويقال لفاعل ذلك: ربيئة، وهو العين والطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم العدو، ولا يكون في الغالب إلا على جبل أو شرف أو شيء مرتفع لينظر إلى بعد. وأما "يهتف" فمعناه: يصيح ويصرخ. وقولهم: "يا صباحاه" كلمة يعتادونها عند وقوع أمر عظيم ليجتمعوا ويتأهبوا له». فكان المصطفى ﷺ لأمته العين الساهرة التي تحرس آفاقهم وتصيح بهم لئلا يباغتهم غضب الله.

الحديث الثاني عشر

النجوم أمنة للسماء وأنا أمنة لأصحابي

نص الحديث:

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّيْنَا المَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ... فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ».[1]

ينبثق التشبيه في هذا الحديث من المشهد نفسه؛ فقد رفع النبي ﷺ رأسه إلى السماء، فصار المشبَّه به حاضرًا أمام عيون السامعين قبل أن يُنطق به. ثم يبني البيان النبوي سلسلة تشبيهية من ثلاث حلقات متوازية: النجوم للسماء، والنبي لأصحابه، والأصحاب للأمة؛ وكل حلقة تقوم على المعادلة نفسها: حضورٌ يحفظ، وغيابٌ يُطلق ما كان محبوسًا. فالذات الشريفة هنا ليست مصدر هداية فحسب، بل حصنٌ يحبس الفتن ما دام قائمًا. وتداوليًّا، الحديث سلسلة أفعال إخبارية تسير بالحجاج من الأظهر المحسوس إلى الأخفى المعقول، وقوتها غير

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

المباشرة توجيهية: تحمل السامع على معرفة قدر النبي وقدر أصحابه، والتمسك بما كانوا عليه، والحذر مما يأتي بعدهم.

وقد فصّل الإمام النووي حلقات هذه السلسلة فقال: «قال العلماء: الأَمَنة - بفتح الهمزة والميم - والأمن والأمان بمعنى. ومعنى الحديث أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة وَهَنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت. وقوله ﷺ: "وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون"، أي: من الفتن والحروب، وارتداد من ارتد من الأعراب، واختلاف القلوب، ونحو ذلك مما أنذر به صريحًا، وقد وقع كل ذلك. قوله ﷺ: "وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون" معناه: من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه، وطلوع قرن الشيطان، وظهور الروم وغيرهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة، وغير ذلك. وهذه كلها من معجزاته ﷺ».[٢]

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/٨٣).

الحديث الثالث عشر

أنا وكافل اليتيم

نص الحديث:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا»، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا.(١)

يختزل النبي ﷺ في هذا النص الشريف أبعاد الجمل والمجلدات عبر «إشارة جسدية سيميائية»؛ إذ يضم إصبعيه الشريفين ويفرّج بينهما شيئًا يسيرًا، ليتشكل دالّ بصري حركي يجسد القرب والتحام المنزلة في دار الخلد، بينما يرمز التفريج الضئيل إلى الفارق اللازم بين مقام النبوة ومقام التبع. وهذه الحركة البدنية تصاحب فعلًا إخباريًّا عن جزاء يتولاه الله، لا وعدًا التزاميًّا يُلزم به المتكلم نفسه، وقوته غير المباشرة توجيهية بالترغيب في الكفالة؛ إذ تنقل الجزاء الأخروي من تجريد الوعد إلى مشاهدة العين، مما يحرك أفق انتظار المتلقي ويدفعه مسارعًا إلى مكارم الأخلاق.

وقد التقط شراح الحديث هذه الوثبة الحجاجية الحركية؛ إذ ينقل ابن حجر عن الإمام ابن بطال قوله: «حقٌّ على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك». ويستخرج الحافظ ابن حجر المناسبة العلمية العميقة لهذا

(١) أخرجه البخاري (٥٣٠٤، ٦٠٠٥) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، واللفظ له في الموضع الثاني. وله شاهد عند مسلم (٢٩٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الاقتران بقوله: «والحكمة في ذلك أن النبي شأنه أن يُبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم فيكون كافلًا لهم ومعلّمًا ومرشدًا، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه بل ولا دنياه، ويرشده ويعلمه ويحسن أدبه؛ فظهرت مناسبة ذلك». لتتحول إشارة الأصابع إلى دستور تربوي ينشئ مجتمع التراحم والإخاء.

الحديث الرابع عشر

المرأة الصابرة على أيتامها

نص الحديث:

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا وَامْرَأَةٌ سَفْعَاءُ الخَدَّيْنِ كَهَاتَيْنِ يَوْمَ القِيَامَةِ» – وَأَوْمَأَ يَزِيدُ [ابْنُ زُرَيْعٍ، أَحَدُ رُوَاتِهِ] بِالوُسْطَى وَالسَّبَّابَةِ – «امْرَأَةٌ آمَتْ مِنْ زَوْجِهَا، ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، حَبَسَتْ نَفْسَهَا عَلَى يَتَامَاهَا حَتَّى بَانُوا أَوْ مَاتُوا».[1]

تتبدّى في هذا الحديث مقابلات بلاغية وتداولية مشحونة بالصبر والجزاء؛ إذ يبرز دالّ بصري مؤثر هو «سفعاء الخدين»، وهو رمز سيميائي للمشقة والتضحية وتغيّر بشرة الوجه نتيجة العناء وترك الزينة والتبذّل في سبيل رعاية الأيتام. وذلك الشحوب الفاني يتلاشى في المشهد الأخروي أمام دالّ العزة والقرب النبوي الشريف المتمثل في المجاورة بين الأصابع. ويجمع النص تداوليًّا بين الإخبار عن المنزلة والثناء التعبيري على صبر صاحبتها، وقوته غير المباشرة ترغيبٌ يثبّت صبر الأرامل الصالحات وينسيهن عناء السنين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٤٩) من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، وإسناده ضعيف؛ فيه النهاس بن قهم وهو ضعيف، وضعّفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود. والإيماء بالإصبعين في رواية أبي داود من فعل الراوي يزيد بن زريع حكايةً لإشارة النبي ﷺ. وأصل المعنى ثابت في فضل كافل اليتيم من حديث سهل بن سعد المتقدم في الحديث الثالث عشر.

وقد فكّك أئمة الحديث خبايا هذا التوصيف الظاهري؛ إذ نقل العظيم آبادي عن الإمام الخطابي قوله: «السفعاء: هي التي تغير لونها إلى الكمودة والسواد من طول الأيمة... يريد بذلك ﷺ أن هذه المرأة قد حبست نفسها على أولادها ولم تتزوج فتحتاج إلى أن تتزين وتصنع نفسها لزوجها». ويضيف الدهلوي موضحًا عمق النص: «أراد أنها بذلت نفسها لأولادها وتركت الزينة والترفه حتى تغير لونها من المشقة إقامةً على ولدها بعد وفاة زوجها، ولم يرد أنها كانت من أهل الخلقة كذلك لقوله: "ذات منصب وجمال"». فكان هذا الثناء أعظم تكريم للمرأة التي تبذل شبابها وجمالها حفظًا لبيتها ووليدها.

الحديث الخامس عشر

من عال جاريتين

نص الحديث:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ»، وَضَمَّ أَصَابِعَهُ.(١)

يتجدد التعبير البدني السيميائي في هذا الحديث الشريف عبر دالّ بصري قاطع هو «ضم الأصابع»؛ ليحقق انطباقًا كليًّا وشاخصًا بين كافل البنات وبين الذات الشريفة يوم القيامة. والحديث جملة شرطية إخبارية في ظاهرها، توجيهية في قوتها الإنجازية غير المباشرة، وتتأسس هذه القوة على اختيار لفظ «العَوْل»، الذي ينشئ التزامًا تكليفيًّا كاملًا بالمؤنة والتربية والحدب النفسي، ليقف النص شجاعًا في وجه الموروث الجاهلي المزدري للإناث، مستبدلًا إياه ببديل حجاجي وتربوي يرفع قدر البنات إلى أعلى منازل القرب النبوي.

وقد جلّى الإمام النووي دلالة هذا التعبير والجزاء فقال: «معنى "عالهما": قام عليهما بالمؤنة والتربية ونحوهما، مأخوذ من العول وهو القرب... ومعناه: جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين». وفي هذا الجمع القاطع أعظم زاجر عن استثقال البنات، وأكبر محفّز على حسن رعايتهن وإكرامهن.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الحديث السادس عشر

كنت لك كأبي زرع

نص الحديث:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي حَدِيثِ النِّسْوَةِ الإِحْدَى عَشْرَةَ الطَّوِيلِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهَا: «كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ»، وَفِي رِوَايَةٍ خَارِجَ الصَّحِيحَيْنِ: «إِلَّا أَنَّ أَبَا زَرْعٍ طَلَّقَ، وَأَنَا لَا أُطَلِّقُ»، وَفِيهَا أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، لَأَنْتَ خَيْرٌ لِي مِنْ أَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ.(١)

تشرق في هذا النص النبوي الجليل نفحات من اللطف النبوي والملاطفة الزوجية السامية؛ حيث يستحضر المصطفى ﷺ حكايةً قصّتها عليه عائشة عن نسوة تعاهدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئًا، ليضع تشبيهًا ملاطفًا بينه وبين أبي زرع في الوفاء والإكرام والسعة. وتقتضي البلاغة التداولية هنا حصر التشبيه وتقييده لئلا يتسرب الخوف إلى قلب عائشة؛ فينهض فعل التطييب باستدراك حاسم: «إلا أن أبا زرع طلّق، وأنا لا أطلّق»، فصدر القول «كنتُ لكِ كأبي زرع» فعلٌ تعبيري يبوح بالمودة، وعَجُزه «وأنا لا أطلّق» فعلٌ التزامي يُلزم به المتكلم نفسه أمرًا مستقبلًا، فتنتفي بذلك مظنة الفراق والوحشة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وليس فيهما من المرفوع إلا قوله: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع». أما زيادة «إلا أن أبا زرع طلّق وأنا لا أطلّق» فأخرجها الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/١٧٣، رقم ٢٧٠)، وفي إسنادها مجاهيل وضعفاء كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٢٤٤)، ولها طريق عند النسائي في السنن الكبرى بلفظ: «ولكني لا أطلقك».

وقد أفاض الحافظ ابن حجر في بيان هذا الاستدراك البياني اللطيف فقال: «وقيل ذلك تطييبًا لها وطمأنينة لقلبها، ودفعًا لإيهام عموم التشبيه بجملة أحوال أبي زرع، إذ لم يكن فيه ما تذمه النساء سوى ذلك... وفيه أن التشبيه لا يستلزم مساواة المشبه بالمشبه به من كل جهة». ويوافقه الإمام النووي موضحًا مقصده الشريف بقوله: «هو تطييب لنفسها وإيضاح لحسن عشرته إياها، ومعناه: أنا لكِ كأبي زرع». ليبقى الحديث وثيقة سامية تُظهر كيف يتنزّل المصطفى ﷺ إلى مشاعر أزواجه ليُدخل السرور والأمان على قلوبهن.

الحديث السابع عشر

أنسى كما تنسون

نص الحديث:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى فَزَادَ أَوْ نَقَصَ، فَلَمَّا نَبَّهُوهُ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي، وَإِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَتَحَرَّ الصَّوَابَ فَلْيُتِمَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُسَلِّمْ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَتَيْنِ».(١)

يقرر هذا النص الشريف حقيقة الجبلّة البشرية للمصطفى ﷺ عبر دالّ بليغ هو «عُرضة النسيان السهوي»؛ لتتحول تلك العارضة البشرية إلى مصدر للتشريع العملي والتواضع العظيم. ومن زاوية التداولية وأفعال الكلام، يبدأ النص بفعل إخباري يقرر المماثلة البشرية بالقصر بـ«إنما» والتشبيه في «كما تنسون»، فيبدد أوهام الغلو والإطراء، ثم يتلوه فعلان توجيهيان مباشران («فذكّروني»، «فليتحرَّ الصواب») يرسيان نظامًا تكليفيًّا يوجّه العباد عمليًّا إلى كيفية جبر الخلل بالسجود والتحري عند طروء الشك.

وقد أشار الحافظ ابن حجر إلى دقة هذا التعبير المؤكَّد فقال: «وقيّد الحكم بقوله: "إنما أنا بشر"، ولم يكتف بإثبات وصف النسيان حتى دفع قول من عساه يقول: ليس نسيانه كنسياننا،

(١) أخرجه البخاري (٤٠١) واللفظ له مختصرًا، ومسلم (٥٧٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فقال: "كما تنسون"». فكان هذا النسيان الشريف رحمة أهدت للأمة أحكام السهو، وعلّمتها التواضع والتدارك.

الحديث الثامن عشر

أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر

نص الحديث:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ يَتِيمَةِ أُمِّ سُلَيْمٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ شَرْطِي عَلَى رَبِّي، أَنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، أَرْضَى كَمَا يَرْضَى البَشَرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ، فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ».[1]

ينقل هذا الحديث الشريف طبائع البشرية النبوية من مظنة الآفة إلى سماء الرحمة والتأمين؛ حيث يتحول الغضب الصادر عن الجبلّة الإنسانية إلى «سبب سيميائي للطهور والقربة» للمؤمن غير المستحق للشدة. ويتأسس الخطاب تداوليًّا على طبقتين: طبقة محكية هي دعاءٌ رفعه النبي ﷺ إلى ربه، والدعاء من التوجيهيات لأنه طلب، وطبقة حاضرة هي إخباره أم سليم بذلك الشرط تطييبًا لخاطرها؛ وهو شرط اشترطه الرسول على ربه احتياطًا لأمته وشفقةً عليهم، لئلا يصيب أحدًا منهم أذى من عوارض الغضب البشري الطارئ.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقد استجلى الإمام النووي هذا الاحتياط النبوي العظيم فقال: «هذه الأحاديث مبيّنة ما كان عليه ﷺ من الشفقة على أمته والاعتناء بمصالحهم والاحتياط لهم والرغبة في كل ما ينفعهم... وأن دعاءه يكون رحمة وكفارة إذا لم يكن الملعون أهلًا لذلك في باطن الأمر». فتجلّت شفقة المصطفى ﷺ في جعل حظ أمته حتى من غضبه البشري طهارةً وقربةً عند الله.

الحديث التاسع عشر

آكل كما يأكل العبد

نص الحديث:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَعَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ مُرْسَلًا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ».(١)

تتجسّم العبودية المحمدية في هذا النص الشريف من خلال دالّ بصري وحركي مباشر يتجسد في هيئة القعود والأكل المتواضع المبتعد عن كبر الملوك والجبابرة. والحديث فعل إخباري يصف هيئة المتكلم، ويشكّل تكرار لفظ «العبد» فيه مع التعليل بـ«فإنما أنا عبد» ممارسة حجاجية تربي النفوس على الانكسار لله وإسقاط دواعي الخيلاء، تكراره وإقرانه بـ (إنما) فيشكل قصرًا بليغًا يهدف إلى اقتلاع جذور الكبر والتعالي، وتأكيد التواضع المطلق لله عز وجل.

وقد أبان العلامة المناوي في فيض القدير سر هذه الجلسة الشريفة فقال: «"آكل كما يأكل العبد" أي: في القعود له وهيئة التناول والرضا بما حضر، تواضعًا لله وأدبًا معه؛ فلا أتمكن عند جلوسي له ولا أتكئ كما يفعله أهل الرفاهية... فالمراد بالعبد هنا الإنسان المتذلل المتواضع لربه... فإن التخلق بأخلاق العبودية أشرف الأوصاف البشرية». فغدت هيئته الشريفة أبلغ درس في التواضع والخضوع.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى من حديث عائشة رضي الله عنها، ومن مرسل يحيى بن أبي كثير بزيادة: «فإنما أنا عبد». وحسّن العجلوني إسناد حديث عائشة في كشف الخفاء، وصحّح الألباني الحديث بمجموع طرقه في السلسلة الصحيحة (٥٤٤) وصحيح الجامع.

الحديث العشرون

الراكب في ظل الشجرة

نص الحديث:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ: «مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».(١)

يرسم هذا النص الشريف لوحة سيميائية بالغة الزهد والعبرة؛ حيث يقترن الدال البصري المادي المتمثل في أثر الحصير الخشن على الجنب الشريف مع الدال المجازي لـ«الراكب المسافر» الذي يتوسّد ظل شجرة ساعةً من نهار ثم يمضي ويتركها. والجواب النبوي في سياقه ردٌّ على عرضٍ قدّمه الصحابة («لو اتخذنا لك وطاءً»)، فهو فعل إخباري في صيغته، رفضٌ مهذّب في قوته الإنجازية غير المباشرة؛ إذ لم يقل: لا تفعلوا، بل بيّن حقيقة مقامه فأغنى البيان عن الرفض الصريح، معرضًا عن زخرف العاجلة، مذكّرًا المسافر بحقيقة مقامه العابر في هذه الدار.

وقد شرح العلامة المباركفوري نقلًا عن القاري هذا التجرد فقال: «في قوله: "ما لي وما للدنيا" أي: ليس لي ألفة ومحبة مع الدنيا، ولا للدنيا ألفة ومحبة معي حتى أرغب إليها وأنبسط عليها وأجمع ما فيها ولذتها... وفي قوله: "استظل تحت شجرة ثم راح وتركها": وجه التشبيه

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧) واللفظ له، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد (٣٧٠٩)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

سرعة الرحيل وقلة المكث، ومن ثَمّ خصّ الراكب». ليبقى الحصير الشريف أبلغ شاهد على عظمة هذا النبي الذي دانت له الأرض فلم يرتضِ منها إلا ظلًّا زائلًا.

الحديث الحادي والعشرون

بُعثت أنا والساعة

نص الحديث:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»، وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى.(١)

يتجلّى القرب الزمني في هذا النص الشريف عبر رمز بصري بدني قاطع، يتجسد في قرن الإصبعين الشريفين (السبابة والوسطى). والقول إخبار عن قرب الساعة، قوته غير المباشرة إنذارٌ من باب التوجيهيات، يضع المتلقي أمام اختتام التاريخ البشري ووشك الحساب.

وقد بيّن الإمام النووي وجه هذه المقارنة فقال: «قيل: المراد بينهما شيء يسير كما بين الإصبعين في الطول، وقيل: هو إشارة إلى قرب المجاورة». ويوافقه الحافظ ابن حجر بقوله: «المراد بالساعة هنا يوم القيامة». فكان قرن الإصبعين صدمةً زمانيةً توقظ الغافلين ليتأهبوا للقاء الله.

(١) حديث سهل بن سعد: أخرجه البخاري (٤٩٣٦، ٦٥٠٣)، ومسلم (٢٩٥٠). وحديث أنس: أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١). وحديث جابر: أخرجه مسلم (٨٦٧) في خطبته ﷺ.

الحديث الثاني والعشرون

أنا فرطكم على الحوض

نص الحديث:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ». وَجَاءَ قَوْلُهُ ﷺ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَجُنْدُبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.(١)

ينقل هذا النص الشريف دالّ «الفَرَط» — وهو المتقدّم الذي يسبق قومه لإصلاح الماء وإعداد الحياض — ليجعله صفة للذات الشريفة على أعتاب الآخرة. والقول فعل إخباري يتفرّع أثره التأثيري إلى بشارة وتحذير؛ يبشّر المتّبعين بالإرواء والرِّفادة، ويحذّر المبدّلين من الحيلولة والحرمان.

وقد فسّر الإمام النووي هذا اللفظ اللغوي البياني فقال: «الفرط بفتح الفاء والراء، والفارط هو الذي يتقدم الوارد ليصلح لهم الحياض والدلاء ونحوها من أمور الاستقاء؛ فمعنى "فرطكم على الحوض": سابقكم إليه كالمهيئ له». ويضيف ابن حجر: «أي: متقدّمكم؛ فالفرط هو

(١) حديث سهل بن سعد: أخرجه البخاري (٦٥٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٩٠). وحديث ابن مسعود: أخرجه البخاري (٦٥٧٥)، ومسلم (٢٢٩٧). وحديث جندب بن عبد الله: أخرجه البخاري (٦٥٨٩)، ومسلم (٢٢٨٩).

الذي يسبق القوم إلى الماء فيهيئ لهم الحياض والدلاء والأرشية». ليتجلّى النبي ﷺ سابقًا لأمته في الموارد، ومُعِدًّا لهم أسباب الري والأمان.

الحديث الثالث والعشرون

أشبه الناس بإبراهيم

نص الحديث:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «عُرِضَ عَلَيَّ الأَنْبِيَاءُ... وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا صَاحِبُكُمْ» يَعْنِي نَفْسَهُ ﷺ. وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَانْظُرُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ».(١)

تتحول الذات المحمدية الشريفة في هذا النص من موقع المشبَّه إلى موقع «العلامة المرجعية المشاهدة»، التي يرجع إليها الصحابة للتعرف على صورة الخليل إبراهيم عليه السلام. وفي هذا النقل التداولي تحويل للغائب المجهول إلى مرجع حاضر بهي، يربط أصول التوحيد بالذات الشريفة المشاهدة بين أصحابه، فكأنما هذا النسلُ الإبراهيمي المبارك شجرةٌ أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء!

(١) حديث جابر: أخرجه مسلم (١٦٧). وحديث ابن عباس: أخرجه البخاري (٣٣٥٥). ونحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة الإسراء: «ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به»، أخرجه البخاري (٣٤٣٧)، ومسلم (١٦٨).

وقد بيّن الحافظ ابن حجر هذا التناظر الخَلقي فقال: «وأشار بذلك إلى نفسه؛ فإنه كان أشبه الناس بإبراهيم عليه السلام». فكانت ملامحه الشريفة المرآة البصرية التي تُرى فيها صورة أبي الأنبياء خليل الرحمن.

الحديث الرابع والعشرون

أشبهتَ خَلقي وخُلقي

نص الحديث:

> عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ ابْنَةِ حَمْزَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِجَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: «أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي».(١)

يتألق هذا النص الشريف بالجناس اللغوي والازدواج السيميائي بين «الخَلْق» (الصورة الظاهرة) و«الخُلُق» (الجوهر الباطن)؛ ليمنح جعفر بن أبي طالب أعلى منازل الشرف والتناغم الإنساني. وتداوليًّا، جاء هذا الثناء فعلًا تعبيريًّا في سياق خصومة على حضانة ابنة حمزة، قضى فيها النبي ﷺ لخالتها وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، فكان القضاء فعلًا إعلانيًّا يُنشئ الحكم بمجرد النطق به، وجاءت عبارات الثناء على المتنازعين جبرًا لخاطر من لم يُقضَ له؛ فحُلّ النزاع بلطف القول وحكمته.

وقد نبّه الحافظ ابن حجر على جلال هذه الشهادة الشريفة فقال: «وهي منقبة عظيمة لجعفر... أما الخلق فالمراد به الصورة... وأما شبهه في الخلق بالضم فخصوصية لجعفر». فجمع له المصطفى ﷺ بين بهجة المنظر وكمال الجوهر.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٩، ٤٢٥١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في قصة عمرة القضاء، ولم يخرّج مسلم هذه اللفظة. وأخرجها ابن حبان (٧٠٤٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الخاتمة

وهكذا تنتظم هذه الدراسة السيميائية والبلاغية والتداولية في أحاديثها الأربعة والعشرين، في سَلكٍ دُريٍّ من البيان النبوي ينبؤكَ عن نفسه صلى الله عليه وسلم، ولا ينبؤكَ مثله عن مثله لتكشف لنا وإياك أخي الكريم طرفا من الفيوضات المحمدية الكريمة، نسأل الله منها مددا لاينقطع حتى نلقاه على الحوض، وإن كان من خطأٍ أو نسيان فالعفو إنَّ الله يُحبُّ المحسنين، وصل اللهم وبارك وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيه والسائرين على دربه المهتدين بسنته إلى يوم الدين.

فهرس الموضوعات

المقدمة	2
الحديث الأول: اللبنة التي اكتمل بها البناء	4
الحديث الثاني: دعوة إبراهيم وبشارة عيسى	6
الحديث الثالث: الغيث والهدى والعلم	8
الحديث الرابع: الدار والمأدبة والداعي	10
الحديث الخامس: إنما أنا قاسم والله يعطي	12
الحديث السادس: الماحي والحاشر والعاقب	14
الحديث السابع: مثل الوالد المعلِّم	16
الحديث الثامن: الرجل الذي يمنع الفراش من النار	18
الحديث التاسع: النذير العريان	20
الحديث العاشر: رحمة مهداة	22
الحديث الحادي عشر: الرجل الذي رأى العدو	24
الحديث الثاني عشر: النجوم أمنة للسماء وأنا أمنة لأصحابي	26
الحديث الثالث عشر: أنا وكافل اليتيم	28
الحديث الرابع عشر: المرأة الصابرة على أيتامها	30
الحديث الخامس عشر: من عال جاريتين	32
الحديث السادس عشر: كنت لك كأبي زرع	33

الحديث السابع عشر: أنسى كما تنسون	35
الحديث الثامن عشر: أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر	37
الحديث التاسع عشر: آكل كما يأكل العبد	39
الحديث العشرون: الراكب في ظل الشجرة	41
الحديث الحادي والعشرون: بُعثت أنا والساعة	43
الحديث الثاني والعشرون: أنا فرطكم على الحوض	44
الحديث الثالث والعشرون: أشبه الناس بإبراهيم	46
الحديث الرابع والعشرون: أشبهتَ خَلقي وخُلقي	48
الخاتمة	49